

## المعتقد الجاهلي والموروث الشعبي في رواية آزر ابن ذئبة الوادي

### دراسة في النشأة والصراع والتخييل السردى

د. منار عز الدين محمد شعيب

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية

اللغات والعلوم الإنسانية، جامعة القصيم، المملكة العربية السعودية

#### الملخص

يتناول هذا البحث رواية آزر ابن ذئبة الوادي للكاتب أحمد آل حمدان بوصفها نموذجًا سرديًا يعيد توظيف المعتقد الجاهلي والموروث الشعبي ضمن بنية فنية معاصرة، من خلال استدعاء الرموز والطقوس والأساطير العربية القديمة، وإعادة تشكيلها داخل سردية تقوم على النشأة البطولية، والصراع القيمي، والتخييل الرمزي.

يدرس البحث بنية النشأة الأولى للبطل "آزر"، حيث يندمج البعد الأسطوري بأسطورة الحيوان الراعي، ويُستبدل النسب الوراثي بمنظومة رمزية تستند إلى الرؤيا والقدر، كما يكشف عن تشكّل الصراع انطلاقًا من معتقدات الجاهلية مسلطًا الضوء على الكيفية التي يُعاد فيها إنتاج هذه المعتقدات داخل رؤية أخلاقية حديثة تُفضّل الفعل الإنساني على السلالة والانتماء، وأخيرًا، يحلل البحث دمج الرموز الشعبية والطقوس داخل البنية السردية الحديثة، مبينًا كيف تتحوّل الأسطورة إلى طاقة تخيلية تُنتج الشخصية والمصير والحدث.

وقد اعتمدت الدراسة منهجًا أنثروبولوجيًا أدبيًا، مستندًا إلى التصورات النظرية حول البنية الرمزية للأسطورة، مع توظيف أدوات التحليل السردى البنيوي لفهم البنية الحكائية، وتكوين الشخصيات، ومسار التخييل.

#### الكلمات المفتاحية:

المعتقد الجاهلي، الموروث الشعبي، النشأة البطولية، الصراع القيمي، التخييل السردى.

## Pre-Islamic Belief and Popular Heritage in Azar, Son of the Valley's She-Wolf: A Study of Origin, Conflict, and Narrative Fictionalization

### Abstract :

This study explores Azar, Son of the Valley's She-Wolf by Ahmed Al-Hamdan as a narrative model that reinvests pre-Islamic belief and Arab popular heritage within a contemporary artistic structure. It examines the novel's use of ancient symbols, rituals, and myths, reconfiguring them into a modern narrative based on heroic origin, value-based conflict, and symbolic fictionalization. The research first analyzes the mythic framework of Azar's birth, where the concept of noble lineage is replaced by a symbolic structure rooted in visions and destiny, notably through the motif of the nurturing animal. It then investigates how the narrative reappropriates notions of honor, lineage, sorcery, and prophecy from pre-Islamic thought, shaping them into a modern moral vision that prioritizes individual agency over tribal affiliation. Finally, the study explores the integration of folkloric elements into the narrative's structure, showing how myth transforms into imaginative energy that drives characters, events, and fate. Employing a literary-anthropological approach combined with narrative analysis, this study demonstrates how the contemporary Arabic novel can revitalize inherited traditions within a modern fictional context without reducing them to mere reproduction or simplification.

### Keywords:

Pre-Islamic belief, Popular heritage, Heroic origin, Value conflict, Narrative fictionalization.

يُعدّ الموروث الشعبي والأسطورة الجاهلية من أبرز المكونات الثقافية التي شكّلت الوعي العربي القديم، ورافقت تشكّله الرمزي والاجتماعي قبل الإسلام، وقد تميّز هذا الموروث بطاقته الرمزية العالية، وقدرته على إنتاج تصورات بديلة حول الطبيعة، والمصير، والبطولة، والقوى الخارقة، كما حفظته الذاكرة الجمعية عبر الحكايات الشفوية، والأساطير، والخرافات، والقصائد، والطقوس، في صور تمزج بين الخيال الشعبي والإيمان الغيبي، بين الحكمة والتخييل، والرمز والأسطورة.

ومع تطور السرد العربي الحديث، لم تعد هذه العناصر التراثية مجرد مواد سردية تزيينية، بل أصبحت مدخلاً تأويلياً يُتيح للروائي إعادة بناء العلاقة بين الماضي والحاضر، وبين الذاكرة والتخييل، وفي هذا السياق، تبرز رواية آزر ابن ذئبة الوادي للروائي السعودي أحمد آل حمدان بوصفها نصاً يُعيد توظيف هذا الموروث ضمن بناء تخيلي معاصر، قائم على تفاعل مركّب بين تقنيات السرد الحديث وبنى المعتقد الشعبي الجاهلي.

تتميّز الرواية بأنها لا تستدعي الأسطورة الجاهلية بنحو وصفي أو تقليدي، بل تعمل على تفكيكها، وإعادة تركيبها داخل بناء سردي مُحمل بالدلالات الرمزية، مما يجعلها نموذجاً روائياً يحتفي بالأسطورة بوصفها آلية جمالية وتكوينية، ومن هنا، فإن الدراسة تسعى إلى تحليل هذا التوظيف السردى للموروث الشعبي والمعتقد الجاهلي، من خلال ثلاثة محاور رئيسة:

- بناء نشأة البطل استناداً إلى الأسطورة وأسطورة الحيوان الراعي.
- تشكّل الصراع والمصير انطلاقاً من مفاهيم الشرف والنسب والسحر والنبوءة.
- إعادة دمج الرموز الشعبية داخل بنية سردية حديثة تتجاوز النقل والتقليد إلى التخييل والتوليد.

#### أهمية البحث

- يهدف إلى تحليل كيفية استدعاء الرموز الجاهلية والأسطورية داخل البناء السردى للرواية، وبيان أثرها في تشكيل الشخصية والحدث الروائي.
- يقدّم نموذجاً تطبيقياً لتحليل البنية السردية من منظور أنثروبولوجي رمزي.
- يفتح أفقاً جديداً لفهم كيفية تحول الأسطورة والمعتقد من عناصر مرجعية إلى أدوات بنائية داخل النص الروائي.
- يُبرز الطاقات الجمالية والتأويلية الكامنة في توظيف التراث الشعبي والأسطورة ضمن رواية معاصرة.

### أسباب اختيار الموضوع

- تميّز الرواية بتوظيف عميق للمعتقدات والأساطير الجاهلية .
- الحاجة إلى مقارنة حديثة للموروث العربي الجاهلي تتجاوز الثنائية التقليدية بين التمجيد أو الإقصاء.
- توفّر الرواية على عناصر رمزية وغيبية كثيفة تستحق القراءة بوصفها نموذجًا للتفاعل بين التراث والتخييل السردي الحديث.

### الدراسات السابقة

رغم تنامي الاهتمام بدراسات الموروث الجاهلي والأسطورة في الأدب العربي، إلا أن الدراسات التي تناولت رواية آزر ابن ذئبة الوادي بوصفها نصًا أنثروبولوجيًا سرديًا لا تزال منعدمة. وتبرز في المجال العام بعض الدراسات النظرية مثل:

- الأساطير العربية قبل الإسلام وعلاقتها بالديانات القديمة للباحث العراقي قصي الشيخ عسكر تناول في الكتاب تعريف الأسطورة ووظائفها وتحدث عن العوامل الخارجية التي أثرت في الأسطورة العربية الجاهلية، وكذلك العوامل الداخلية .
- كتاب الأسطورة عند العرب في الجاهلية لمؤلفه الدكتور حسين الحاج حسن وفيه تحدث عن الأساطير الاجتماعية والدينية ومذاهب وعادات العرب في الجاهلية .
- أسطورة الحياة والموت في الشعر الجاهلي بحث منشور للدكتور محمد فورار والذي تحدث فيه عن فلسفة الحياة والموت وكيف تعامل معها الشاعر الجاهلي وكيف كانت الأساطير والمعتقدات تجليات ثقافية استلهموا منها نماذجهم.
- توظيف الأسطورة في الرواية العربية المعاصرة بحث للدكتور وجيه يعقوب الذي تناول مفهوم الأسطورة وعلاقتها بالأدب وكيف وظفها الكتاب في رواياتهم عبر أربع نماذج تطبيقية من خلال أسطره اللغة والمكان والشخصيات.

### إشكالية البحث وتساؤلاته وأهدافه

تتبع إشكالية البحث من الحاجة إلى فهم كيفية توظيف أحمد آل حمدان للموروث الجاهلي بوصفه بنية دلالية تُعيد تشكيل الشخصية والحدث السردي.

ويطرح البحث عدة تساؤلات :

كيف يتحوّل المعتقد إلى آلية تشكيل تخييلي؟ وإلى أي مدى تُنتج الأسطورة سردًا جديدًا لا يعيد إنتاج الموروث بل يحاوره؟

ويهدف البحث إلى تحليل هذا التوظيف، وتفكيك آلياته الرمزية والسردية، من خلال أدوات المنهج الأنثروبولوجي والتحليل البنيوي.

### منهجية البحث

يعتمد البحث على منهج أنثروبولوجي أدبي في دراسة الخلفيات الثقافية للمعتقدات والأساطير المستدعاة في الرواية، من حيث جذورها ودلالاتها الرمزية، ويُزاج ذلك مع تحليل سردي بنيوي للكشف عن وظائف هذه العناصر في تكوين الشخصيات، وبناء الحبكة، وتشكيل المسار الرمزي للمصير الروائي.

### خطة البحث

وقد وُزعت المادة على تمهيد نظري وثلاثة مطالب تطبيقية، تتلوها خاتمة تتضمن أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد: "الموروث الشعبي والأسطورة في الرواية العربية: المفهوم والأبعاد النظرية"

المطلب الأول: "المعتقدات والأساطير الجاهلية في بناء نشأة أزر: النشأة البطولية وأسطورة الحيوان"

المطلب الثاني: "المعتقدات الجاهلية في تشكيل الصراع والمصائر داخل السرد"

المطلب الثالث: "تحولات التخيل الرمزي بين الأسطورة والهوية السردية"

### التمهيد النظري

أولاً: مفهوم الموروث الشعبي وأبعاده في الثقافة العربية

يُعد الموروث الشعبي ركيزة أساسية في تشكيل الوعي الجمعي والهوية الثقافية لدى المجتمعات العربية منذ الجاهلية وحتى العصر الحديث، وهو لا يشمل فقط العادات والتقاليد، بل يمتد ليشمل الحكايات والأساطير والأمثال الشعبية والأغاني والمعتقدات والأساليب التعبيرية التي تتوارثها الأجيال عبر القرون.

يعرّف عبد الحميد يونس مجال التراث الشعبي بأنه "العادات والتقاليد التي يستجيب فيها الإنسان إلى قواعد استقرت في نفس الجماعة للقيام بتوثيق الروابط والعلاقات بين الأفراد وبين الوحدات الاجتماعية التي يتألف منها الشعب"<sup>1</sup>.

ولا يقتصر هذا الموروث على العادات والتقاليد، بل يشمل الحكايات والأساطير والأمثال والأهازيج والرموز الطقسية، التي تبلورت بوصفها وسيطاً رمزياً لفهم العلاقة بين الإنسان والعالم، ومن هنا تتقاطع دراسة

<sup>1</sup> - التراث الشعبي، عبد الحميد يونس، دار المعارف (كتابك 91)، 1979، ص 5

الموروث الشعبي مع منهج الأنثروبولوجيا الأدبية، الذي لا ينظر إليه بوصفه بقايا جامدة، بل كبنية تأويلية تعبّر عن الرؤية الكونية للإنسان العربي، وتُسهّم في بناء النصوص الحديثة، لا سيما السرد الروائي، بما فيه من إمكانيات تخيلية تُعيد إنتاج تلك الرموز في سياقات جديدة.

فكل ما تركه السابقون موروثاً، يمثل انعكاساً صادقاً للعلاقة بين الإنسان وبيئته الطبيعية والاجتماعية، ويمثل الفلكلور العربي تجسيداً حياً للتجربة التاريخية للإنسان العربي، إذ يعكس علاقته بالبيئة، والمقدس، والمجتمع، من خلال أنساق رمزية تراكت عبر الأجيال، وتُظهر الدراسات الأنثروبولوجية أن الفلكلور لا يُعدّ مجرد سرد شفهي أو تقاليد عابرة، بل هو "بنية رمزية كاشفة" تعبّر عن النظام القيمي والتُمثيل الثقافي للجماعة، وقد ذهب عدد من باحثي الفولكلور إلى اعتبار المنطقة العربية "حيزاً تراثياً متجانساً يُشكّل نطاقاً غنياً للأساطير السامية"، لما تحمله من استمرارية في الرمز والمعتقد. و"قد تعارف علماء الفولكلور والإنسانيات على النظر ودراسة عالمنا العربي كمجموعة متجانسة التراث، تُعرف بمنطقة الفولكلور والأساطير السامية"<sup>1</sup>، ومن هذا المنطلق، يُمكن قراءة الفلكلور العربي بوصفه مرآة للوعي الجمعي، وأداة سردية تُشَقّر صراعات الجماعة مع الطبيعة، والغيب، والسلطة، وهو ما يمنحه حضوراً حياً في الأدب، لا سيما في الرواية، حيث يتحوّل إلى وسيط فني يُعيد إنتاج هذه الرموز داخل بناء تخيلي حديث، فالفلكلور في جوهره هو مرآة لوعي الجماعة، وطريقة في فهم العالم وتأويله، بما يحمله من حكم وأمثال وأغاني وأساطير وعادات.

وما يُميز الفلكلور العربي تحديداً أنه نشأ في بيئات متعددة (صحراوية، زراعية، بدوية، حَضْرِيّة) وعبّر عن تفاعلات الإنسان العربي مع المكان والزمن والسلطة والمقدّس.

حيث ينطوي على رموز وعناصر ليست عفوية، بل مشحونة بدلالات، فالحكاية الشعبية تُخفي صراعاً طبقيّاً أو أخلاقياً، لذا، فإن الفلكلور العربي يتيح فهم البنية العميقة للفكر العربي التقليدي، وتفتح المجال أمام قراءة الموروث الشعبي كخطاب ثقافي موازٍ للتاريخ الرسمي.

لذا لا ينبغي النظر إلى التراث الشعبي العربي كوثيقة تاريخية صماء، بل بوصفه بنية حية تتفاعل باستمرار مع المتغيرات الاجتماعية، فالتراث الشعبي " مصطلح شامل نطلقه لنعني به عالماً متشابكاً من الموروث الحضاري، والبقايا السلوكية والقولية التي بقيت عبر التاريخ، وعبر الانتقال من بيئة إلى بيئة، ومن مكان إلى مكان في الضمير العربي للإنسان المعاصر .

<sup>1</sup> - مدخل لدراسة الفلكلور والأساطير العربية، شوقي عبد الحميد، الناشر مؤسسة هنداوي، 2017، ص 16

وهو بهذا مصطلح يضم البقايا الأسطورية أو الموروث الميثولوجي العربي القديم، كما يضم الفولكلور العربي في البيئات العربية المختلفة سواء كان الفولكلور القولي أو الفولكلور النفعي أو الفولكلور الممارس، وسواء ظل على لغته الفصحى أو تحول إلى العاميات المختلفة السائدة في كل بيئة من هذه البيئات<sup>1</sup>

لذا فالنظر إلى هذا الموروث ودراسته بوصفه يشكل جذراً لكل حضارة مضت وأنبت في عصور سابقة.

ولكل موروث أبعاد أخرى غير مباشرة تتكئ عليها الكثير من الدراسات الاجتماعية حيث تبرز الأبعاد الرمزية في الموروث العربي لاسيما الشعبي صورة لحياة الإنسان حيث يكتنز التراث الشعبي العربي بنماذج سردية ثرية تمزج بين التاريخي والأسطوري والرمزي، وتعكس أزمات الإنسان وصراعه مع قوى الطبيعة والغيب، فالعربي الجاهلي لم يكن يضع فاصلاً بين العالم المادي والعالم الروحي؛ بل كان يرى أن القوى الخارقة تتجسد في كل مظاهر الطبيعة المحيطة به، "ففي الأسطورة تدخل قوى وكائنات أقوى وأرفع من البشر، تدخل في نطاق الدين حاملة أسراراً لا يسع الإنسان معرفتها"<sup>2</sup>.

فلقد تشكّل الوعي الكوني لدى الإنسان العربي الجاهلي ضمن رؤية لا تفصل بين العالم المادي والعالم الغيبي، بل تقوم على اندماج تام بين المحسوس والمتعالي، حيث تسكن القوى الروحية كائنات الطبيعة، وتُفهم الظواهر من خلال منطق رمزي لا عقلاني.

وقد أنتج هذا التداخل بين المادة والروح أساطير ومعتقدات تمنح الكائنات الطبيعية وظائف رمزية، بل وقدسية، تتجاوز حضورها البيولوجي وهو ما ينعكس بجلاء في النصوص الأدبية التي توظف هذا الخيال، حيث تتحول الطبيعة إلى نسيج من العلامات، وتُستعاد النبوءات والكائنات الماورائية كأدوات لبناء المصير، وهي نقطة تلتقي مع المنهج الأنثروبولوجي الذي يرى في هذه البنى الرمزية تعبيراً عن "أنساق دلالية بديلة للوعي التاريخي"<sup>3</sup>

إن هذا التكامل بين العالمين لم يكن ناتجاً عن خرافة عابرة، بل عن حاجة وجودية لفهم الطبيعة والتعايش معها، مما دفع الإنسان الجاهلي إلى إضفاء الطابع المقدس على مظاهرها، فالصحراء ليست مجرد امتداد رملي، بل كيان غامض؛ والرياح ليست هواءً عابراً، بل رسول قد يحمل بشارة أو نذير؛ والنجم ليس جرماً مضيئاً فقط، بل دليل، وشاهد، وقد يكون مؤنساً روحياً.

1 - الموروث الشعبي، فاروق خورشيد، دار الشروق، مصر، ط1، 1992، ص 12

2 - موسوعة الأديان السماوية والوضعية، نعمة حسن - دار الفكر اللبناني- بيروت -1994م-25/1

3 - السردية العربية بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، عبد الله إبراهيم، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1992، ص 81

ومن هذا المنظور، فإن الروايات التي تستدعي هذا الحس الكوني تُعيد تشكيل الأسطورة بوصفها تفسيراً شعبياً للكون، لا بوصفها مجرد حكاية، كما يُساعد هذا الإدراك الشامل في فهم كثير من الطقوس الجاهلية، مثل التقرب إلى الأصنام، والاستعانة بالكهان، والخوف من الجن، بوصفها مظاهر لوحدة العالم الروحي والمادي في وعي الإنسان الأول فقد "كان من أثر الحياة القاسية التي كان يحياها الجاهليون، وعدم استعمال العقل والحكمة في كثير من مظاهر الحياة، أن كانوا لا يحسنون ربط الأسباب بمسبباتها، فوجدت لديهم عادات و اعتقادات عجيبة بعيدة عن مجال العقل كالكهانة والعرافة وزجر الطير وضرب الحصى وخط الرمل"<sup>1</sup>.

لذلك امتلأت المخيلة الشعبية العربية بكائنات أسطورية مثل السعلاة، النسناس، الغول، التي تعبر عن صراعات الإنسان مع المجهول<sup>2</sup>.

ثانياً: الأسطورة الجاهلية: المفهوم والخصائص والتميز عن الدين والتاريخ

تُعد الأسطورة الجاهلية من أقدم أنماط التعبير الرمزي التي صاغ بها العرب الأوائل تصوراتهم حول الكون والمصير والعلاقة مع الغيب، فهي تقدم نماذج تفسيرية للوجود من خلال حكايات رمزية تستند إلى الخيال الشعبي الجمعي.

وقد عرفها مرسيا إلياد بقوله: " الأسطورة تروي تاريخاً مقدساً؛ تروي حدثاً جرى في الزمن البدئي، الزمن الخيالي، بعبارة أخرى، تحكي لنا الأسطورة كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود " <sup>3</sup> ويعكس هذا التعريف للأسطورة فهماً عميقاً لطبيعتها كأداة تفسيرية تاريخية جماعية، لا مجرد سرد خرافي، فهو يربطها بوظيفة تاريخية وثقافية، تجعل منها لغة رمزية تنبثق من العقل الجمعي، هدفها شرح العالم وتحديد موقع الإنسان ضمن شبكة العلاقات الوجودية بين الذات، والمقدس، والطبيعة.

وبهذا التصور، تتحول الأسطورة إلى نظام تأويلي يمنح الجماعة أدوات لفهم ما يتجاوز إدراكها المباشر، ويتيح لها ضبط العلاقة مع قوى عليا لا يمكن مواجهتها إلا عبر اللغة الرمزية والطقسية.

وقد تشكلت الأسطورة الجاهلية حول قوى الطبيعة والدهر والمصير، وارتبطت بعبادة الأصنام والنجوم والأحجار، حيث عاش الإنسان العربي في بيئة قاسية دفعته لتقديس كل مظاهر الطبيعة خوفاً ورجاء، فقد كان

1 - تاريخ الأدب الجاهلي، على الجندي- الجزء الأول- مقدمة لدراسة الأدب الجاهلي- ط ٢. ١٩٦٦. مكتبة الجامعة العربية. بيروت- ص 104

2 - انظر العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1995، ص 103

3 - مظاهر الأسطورة، إلياد مرسيا، ترجمة: نهاده خياطة، مؤسسة هنداوي، 2017 م، ص 14



يؤمن بقوى خفية يراها في كل شيء حوله حيث يراها في الشمس، في القمر والرياح والمطر والحيوان والصخر.

وتتميز الأسطورة الجاهلية بأنها مزيجاً من المعتقد والخرافة والبيئة، فهي نظام سردي متحرك تتفاعل فيه الخرافة مع التاريخ والدين والبيئة، لتعكس صورة الإنسان العربي وصراعه مع وجوده.

ومن أبرز ملامح الأسطورة الجاهلية ظهور نماذج "البطل ذو النشأة الغريبة"، حيث يظهر الفرد الذي ينشأ في بيئة غير اعتيادية ويخوض مغامرات مصيرية. وهو نمط عالمي أيضاً كما بين جوزيف كامبل في تحليله لمراحل طفولة البطل الإنساني<sup>1</sup>.

فنموذج "البطل ذو النشأة الغريبة"، الذي يُعدّ من الأنماط المركزية في الأساطير الجاهلية والعالمية على السواء، يتميز ببطل لا ينشأ في بيئة طبيعية أو داخل جماعته الأصلية، بل في ظروف استثنائية غالباً ما تكون غامضة أو خارجة عن المألوف – كأن يُربى في الصحراء، أو ترعاه كائنات غير بشرية، أو يُخفى عن مجتمعه، هذه النشأة الخاصة تُمهّد للبطل طريقاً نحو مغامرات مصيرية تُعيد تعريف هويته ومكانته، وغالباً ما تؤهله لتحمل عبء الخلاص أو التغيير أو المواجهة الحاسمة مع قوى الشر أو القدر.

وتتقاطع هذه الرؤية مع ما طرحه جوزيف كامبل في نظريته الشهيرة عن "رحلة البطل"، حيث يمرّ البطل بمراحل محددة: "النداء"، "العبور"، "الاختبار"، "العودة"، وهي مراحل تُجسّد نمواً رمزياً للوعي، لا مجرد تسلسل مغامراتي، وبهذا، تتضح عالمية النمط الأسطوري للبطل، لكنه يكتسب في السياق الجاهلي نكهته الخاصة، إذ يرتبط بثقافة الصحراء، وبالقيم القبلية، وبنظام الشرف والدم، ويُحمل رمزية تتعلّق بإعادة تأسيس الذات العربية قبل انبثاق الرسالة الكبرى.

في ضوء ذلك، فإنّ توظيف الرواية لهذا النموذج لا يُعدّ محاكاة شكلية للأسطورة، بل استعادة واعية لبنية رمزية عميقة تعكس معاناة البطل العربي مع التهميش أو الغموض أو النفي، وتُمهّد لتحوّله إلى رمز مقاوم أو حامل لقضية، كما يُتيح هذا التوظيف إسقاطات معاصرة، تتعلّق بالهوية، والمصير، والعلاقة بالمجتمع، ما يجعل من "نشأة البطل الغريبة" إطاراً سردياً لإعادة قراءة الذات في مرآة الأسطورة.

أما الفارق الجوهرى بين الأسطورة والدين والتاريخ، فيوضحه فراس السواح على أن "الأسطورة نوع من الأدب، وربما كانت أقدم أنواع الأدب، إنها قصة تحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات وما إليها، ولكنها ليست قصةً دنيويةً مما يتداوله أفراد الجماعة في مجالسهم، بل قصة مقدّسة لا تُتلى إلا في

<sup>1</sup> - البطل بألف وجه، جوزيف كامبل، ترجمة: حسن صقر، ط1- دار الكلمة للنشر والتوزيع، دمشق، 2003، ص 323

مناسبات دينية معينة، أما شخصياتها فتنتهي إلى المجال القدسي، وهي لا تتطرق إلى الإنسان إلا في علاقته بالشخصيات الماورائية؛ وبالتالي فإن موضوعاتها تقتصر على المسائل الكبرى؛ مثل: خلق العالم، وأصل الإنسان، والموت، والحياة، والعالم الآخر وما إليها.<sup>1</sup>

فالأسطورة إذن تظل سرّدًا رمزيًا خارج الزمن، في حين أن الدين ينظم العقيدة والتاريخ يوثق الوقائع الموضوعية.

ثالثًا: تمثّلات المعتقدات والأساطير الجاهلية في الرواية العربية الحديثة

شهدت الرواية العربية الحديثة والمعاصرة عودة واعية إلى استثمار الموروث الشعبي والأسطورة، حيث لم تعد الرواية تكتفي بالسرد التاريخي أو الواقعي، بل تجاوزت ذلك إلى بناء عوالم تخيلية تستعيد المعتقدات القديمة كجزء من استكشاف هوية الإنسان العربي وتجذيره في تراثه الثقافي.

فالأسطورة في الرواية الحديثة أصبحت من أبرز آليات الكتابة الروائية الحديثة، لما تمنحه من طاقة رمزية توسع الدلالة وتمنح السرد أبعادًا جديدة.

وفي هذا الإطار تستخدم الرواية العربية المعاصرة المعتقدات والأساطير الجاهلية بوصفها «ذاكرة جمعية» تعيد ربط الحاضر بالماضي في مواجهة تحديات العصرية والاغتراب.

" فالرواية الحديثة تستدعي المعتقدات الشعبية والأسطورية بوصفها أدوات لتشكيل الرؤية الفنية، ولإبراز العلاقة بين الإنسان العربي المعاصر وجذوره الثقافية العميقة"<sup>2</sup>.

فالروايات العربية تستدعي، في أحيان كثيرة، حكايات النشأة الغربية، وصور الأبطال الذين يربون في البرية أو تحت رعاية الحيوانات، كما في كثير من الأساطير العربية والعالمية، وهي ثيمة حاضرة بقوة في رواية آزر ابن ذئبة الوادي التي تجعل من نشأة البطل نواة مركزية للسرد.

ونلاحظ أن الكاتب العربي حين يستعين بالأسطورة فإنه لا يستعملها كمادة خام، بل كآلية توليدية تولد دلالات جديدة في كل قراءة وبهذا تتجاوز الرواية الحديثة الوظيفة التوثيقية للموروث إلى إعادة إنتاجه داخل بناء رمزي جديد، يمنح النص مرونة في طرح قضايا الهوية والوجود ضمن أفق ثقافي معاصر.

1 - الله والكون والإنسان: نظرات في تاريخ الأفكار الدينية، فراس السواح، مؤسسة هنداوي، 2022، ص 61

2 - الأسطورة والموروث الشعبي في الرواية العربية المعاصرة، علاء عطية، مجلة الأدب والنقد، العدد 412، القاهرة، 2021،

إن رواية آزر ابن ذئبة الوادي لأحمد آل حمدان تمثل نموذجًا واضحًا لهذا التفاعل الجدلي بين الموروث الجاهلي وبنية الرواية الحديثة؛ إذ تتكئ على الأسطورة الجاهلية في رسم نشأة البطل وشخصيته البطولية الخارقة التي تمر بمراحل المحنة والصعود، وهو النموذج الذي حلله كامبل في رحلته الشهيرة للبطل<sup>1</sup>.

كما أن استدعاء الكائنات الرمزية مثل الذئب، واستحضار قيم البطولة القبلية، والارتباط الوثيق بقوى الطبيعة، يمنح الرواية أبعادًا رمزية تعيد تفعيل مخزون الثقافة الجاهلية في أفق تخيلي معاصر، يجمع بين الأصالة والبناء السردي الحديث.

### **المطلب الأول: المعتقدات والأساطير الجاهلية في بناء نشأة آزر: النشأة البطولية وأسطورة الحيوان**

لا يمكن فهم نشأة البطل في رواية آزر ابن ذئبة الوادي بوصفها مقدمة تقليدية للسرد، بل هي بنية أسطورية مشبعة بالرموز، تُعيد إنتاج نمط "النشأة البطولية الغريبة"، الذي يُعد من أكثر التيمات حضورًا في الأساطير العالمية والمحلية.

وفي هذا السياق، تمثل الرواية إعادة تأويل لهذا النمط، حيث يُلقى الطفل آزر في سفح الجبل في مشهد يحاكي الأساطير القديمة التي تدمج بين العزلة، القدر، والولادة الماورائية.

غير أن الرواية لا تكتفي بإعادة سرد النمط، بل تُعيد كتابته ضمن رؤية حديثة تربط بين القطيعة الاجتماعية (فقدان النسب) وبين التعويض الرمزي عبر الحيوان الحامي، في استعادة دقيقة لما يُعرف في المعتقدات القديمة بـ"أسطورة الحيوان الراعي"، التي يظهر فيها الحيوان بوصفه حامياً ومربياً، كما في أسطورة رومولوس وريموس<sup>2</sup> اللذين ربتهما الذئبة في التقاليد اللاتينية، ويكمن جوهر هذا المطلب في تتبع الكيفية التي تُفعل بها الرواية عناصر المعتقد الشعبي الجاهلي من أجل صياغة ولادة سردية خارقة، لا تجعل آزر مجرد بطل إنساني، بل رمزًا تتقاطع فيه الأسطورة، والرمز الحيواني، والنبوءة الكهنوتية، والتقويض الذكي للمفاهيم القبلية السائدة.

تبدأ الرواية بمشهد يُجسد الانفصال الكامل عن السلالة والنسب، حيث يُلقى الطفل الرضيع عند "سفح جبل أبي قبيس" ليلاً، وسط برد قارس ومطر غزير، في عزلة تامة عن المجتمع المكي، تقول الرواية:

1 - البطل بألف وجه، جوزيف كامبل، - مرجع سابق، ص 330

2 - انظر: ريموس (أسطورة رومانية)، ت.ب.وايزمان، ت.توفيق علي منصور، المجلس الأعلى للثقافة (546)، مصر

" تعالت صرخات طفل رضيع كان مقمطاً في خرقة بالية، يبكي وحيدا وقد أضناه البرد ونال منه الجوع لم ينتبه أحد من سكان الوادي - وادي مكة - إلى أصوات البكاء تلك الليلة .. ليس فقط لأن الوقت كان متأخرا والجميع يغط في نوم عميق، بل لأن أزيز المطر كان يمنع صرخات البكاء من الوصول إلى الأذان المنجدة"<sup>1</sup>.

هذا الانفصال لا يُقرأ على مستوى السرد فقط بوصفه حادثة، بل يتقاطع مع النمط الذي يبنى عليه قصة البطل فغالبا ما يُولد البطل في ظروف خارقة للعادة مختلفة.

غير أن التهديد بالموت يتحول إلى لحظة ولادة رمزية جديدة، حين تظهر الذئبة السوداء الضخمة، التي تتقدم في البداية بروح انتقامية، إلا أنها ما إن تقترب من الرضيع حتى تدرك "غريزيا أنه جائع"، فترضعه، وبهذا تتحول من رمز عدواني إلى "أم بديلة".

" أدركت الذئبة غريزيا أنه جائع فعدلت من وضعية جسدها وقربت ثديها من عند أنفه، وما إن استنشقت الرضيع رائحة الطعام حتى فتح فمه بحركة غريزية، وسارع في التقاط حليبها الدافئ"<sup>2</sup>.

في هذا التحول، نقرأ أعمق تمثيلات "أسطورة الحيوان الراعي" كما عرفت الأساطير العالمية، والتي تظهر فيها الذئاب ككائنات تتجاوز وظيفتها الحيوانية إلى دور الأمومة والإنقاذ، كما في أسطورة رومولوس وريموس في التقاليد اللاتينية، إلا أن حضور الذئبة في الرواية يُعطي للأسطورة بُعداً عربياً، يدمجها في السياق الجاهلي ويمنحها وظيفة رمزية مزدوجة حامية للبطل ومنشئة لهوية بديلة عن النسب القبلي.

يتأكد هذا المعنى حين تحمل الذئبة الطفل إلى دار سيد وادي مكة، نمير بن ربيعة، وتضعه بين يديه في طقس رمزي.

في تلك اللحظة، يرى السيد في الطفل تفسيراً لحلمه، فيسميه "آزر" ويعلنه على الملأ:

" أشهدكم أنني أسميته (آزر) وأشهدكم أنني أكفله في حياتي ومماتي وأنه منذ اللحظة تحت حماي وجواري؛ يُصيّبي ما يُصيّبه ويمسني ما يمسه فمن تعرض له بسوء فقد أهدر دمه"<sup>3</sup>.

هذا الإعلان يمثل لحظة تأسيس للهوية البديلة: لا أب بيولوجي، بل نسب رمزي يُمنح من خلال الطقس العلني والكفالة أمام الكعبة.

1 آزر بن ذئبة الوادي - أحمد آل حمدان - مطبعة الكتاب العربي - 1446هـ - ط1 - ص 11

2 - آزر بن ذئبة الوادي - أحمد آل حمدان - مصدر سابق - ص13

3 - السابق - ص 20

ويزداد حضور الأسطورة في لحظة إعلان مكة "الأمان" للذئبة وآزر، وهو موقف لا يفسر بالمنطق الاجتماعي، وإنما بما يشبه التجلي أو الكرامة الأسطورية، حيث تعلن القبيلة أماناً لكائن غريب ورضيع بلا نسب، وهذا التقبل لا يحدث إلا حين تكون هناك قوى كونية تعمل لصالح هذا المولود، لأن المجتمعات القديمة كثيراً ما كانت تعلن "الأمان" في لحظات تمثل ظهوراً لما يشبه القداسة أو الرمز الأسطوري.

ويشكل إعلان "الأمان" لحظة رمزية فارقة في مسار نشأة البطل، إذ يتحول فيها كائنات طارئان – أحدهما من الحيوان والآخر من دون نسب – إلى "محميين" بنص اجتماعي واعتراف علني، في خرق صريح لمنطق العصبية والنقاء القبلي الذي يحكم الوعي الجاهلي.

وبهذا المعنى، يعمل هذا المشهد على تدشين انتماء اجتماعي جديد يتجاوز الدم، ويرتكز على علامة خفية، أو رؤيا، أو مسعى قدر غير مرئي، وبما أن المكان الذي يحدث فيه الحدث هو مكة، مهد المعتقدات والطقوس، فإن الرواية تستثمر الفضاء المقدس لتمنح هذا التحول شرعية كونية، وتجعل من "حواء" و"آزر" كائنين أسطوريين يُعاد إدخالهما في النظام لا بالولادة، بل بالإرادة الجمعية.

ويزداد الطابع الرمزي حين يسمي السيد الذئبة "حواء"، مشيراً إلى أنوثتها الراحية:

"كنتِ تستطيعين سفك دمه أيتها الذئبة .. ولكنك ولسبب لا يعلمه غير السماء قررت احتواءه؛ ولذلك فمنذ الآن وصاعداً سيكون اسمك حواء"<sup>1</sup>.

وتسمية الذئبة بـ(حواء) تحمل استعادة رمزية لأصل الأمومة الأولى، وتعيد بناء العلاقة بين الإنسان والحيوان في ضوء بديل للنسب الدموي، ما يمنح البطل شرعية رمزية تتجاوز أنساق القبيلة.

حيث تتحول "حواء" من ذئبة إلى كائن أسطوري ذي نسب مقدس، لا سيما عندما يُقال لاحقاً إنها تنحدر من سلالة الذئب الذي كلم النبي يعقوب، وهنا تتقاطع الأسطورة مع المعتقد الديني، ويُعاد تأويل الحيوان بوصفه حاملاً لشرعية روحية، لا تنتمي إلى عالم الوحوش، بل إلى أنساب النبوة.

وأهم ما يميز الذئبة هنا أنها ليست حيواناً برياً مجرداً، بل تُقدّم في الرواية بوصفها تنتمي إلى سلالة رمزية؛ وهذا يشير إلى أن الذئبة ليست مجرد كائن فطري، بل تمتلك نسباً طاهراً، وتاريخاً قدسياً، في هذه الجزئية، يستخدم الكاتب تقنية المزج بين الموروث الديني الإسلامي والموروث الأسطوري الجاهلي، ليجعل من الذئبة كائناً شريف النسب، ويؤسس علاقة جديدة بين الطبيعة والدين والبطولة.

1 - آزر بن ذئبة الوادي – أحمد آل حمدان – مصدر سابق، ص 21

ثم تأخذ النشأة الرمزية طابعًا مكانيًا، فالذنب لم تكتفِ بإرضاع آزر، بل حملته بين أنيابها إلى بيت كبير مكة، وهو مكان مركزي يتكرر في الرواية بوصفه موضع الأمن والحلم، ما يجعل دخول آزر إليه بفعل الذنب بمثابة ولادة رمزية ثانية، تدخل فيها الذنب كقابلة أسطورية، والبيت بوصفه الرحم الاجتماعي الجديد، فالنقل المكاني في الحكاية البطولية غالبًا ما يكون فعلاً يؤسس لانتماء جديد.

وتتكرس بنية النشأة البطولية من خلال حلم السيد نمير، الذي يرى فيه أعاجمًا يسرقون "كوكبًا من سماء العرب"، ويربط ذلك بالطفل آزر، قائلاً:

"ما إن أمسك هذا الصغير لحيتي بيده حتى أعاد إلى الحلم وكأنه بات ألامي حقيقة؛ قلبي يُحدثني أن لهذا الطفل سرا وخبرا، وأنه يؤازر قومه حين يكبر؛ ولهذا أسميته (آزر) .. فاحفظ عني هذا السر يا حارث ولا تخبر به أحدا"<sup>1</sup>

وهنا تتجلى وظيفة الرؤيا التي تحدد المصير، وتُعطي الاسم "آزر" صبغة قدرية، فالحكاية البطولية تبدأ دوماً بنبوءة، نذر، أو حلم، يوجّه أفعال البطل.

وتسير الرواية في تعميق هذا البناء حين توظف شخصية الكاهن "شق"، والذي تدخل إليه امرأة في طقس مهيب تردد فيه "لبيك شقا" سبع مرات، ثم تخبره أنها رأت حلمًا بأنها ستلد "قمرًا" يضيء جزيرة العرب. فيردّ الكاهن بنبوءة:

«تلدين فتاة تُسمينها قمر... حارسها يُخلد اسمه في تاريخ العرب».

هذه النبوءة تُرسّخ البناء الأسطوري فالبطل لا يُولد فقط من دون نسب، بل يُستدعى من قبل الماورائيات، ويتم دمج مبعراً في شبكة نبوءية تُشكّل مساره، فالنبوءة هنا تلعب دوراً مركزياً في بناء التخييل السردى، حيث يصبح الحدث اللاحق تنفيذاً لرؤية غيبية سابقة، وهو أسلوب شائع في بناء الحكاية الأسطورية ويتحقق هذا عندما تبدأ الأحداث بتنفيذ النبوءة، حين يكتمل بناء النشأة الأسطورية حين تُربى قمر من قبل آزر وبثينة، فيتكرّر مشهد التنشئة غير البيولوجية، مما يوحي بأن الأنساب في الرواية ليست بيولوجية، بل رؤيوية وتربوية وقدرية لتشكيل صورة البطل الملحمي الذي ستكتمل صورته مع نهاية الأحداث وهذا يتقاطع مع ما ذكره بيير زيمّا من أن "البحث عن البطل الروائي هو البحث عن المعنى الملحمي المفقود"<sup>2</sup>.

ومن منظور سردي، فإن هذه النبوءة تشكل ما يُعرف بـ"نقطة التنبؤ الحتمي" أي لحظة تُجبر السرد على الالتزام بمسار قدر مُحدد، ما لم يُكسر لاحقاً، وهو ما يجعل القارئ يعيش الترقب، ويُضفي على الحكاية طابعاً

1 - آزر بن ذنب الوادي - أحمد آل حمدان - مصدر سابق، ص 25

2 - النقد الاجتماعي، بيير زيمّا، ترجمة عائدة لطفي، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1991، ص 145

أسطوريًا، كما أن توظيف اسم الكاهن "شِقْ" – وهو اسم حقيقي في المرويات الجاهلية القديمة التي أعطته وصفًا أسطوريًا، فقد بالغ القصاص في وصف الكهان، "فيرسمون لبعضهم صوراً خيالية، فمن ذلك أن شق بن الصعب كان شق إنسان أو شطره فله عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة"<sup>1</sup>

وفي وصف الكاتب له ولمشهد تفسير الرؤية قد أكسب الرواية بعدًا فلكلوريًا أصيلًا، ويمنحها شرعية أنثروبولوجية في بناء شخصياتها من داخل المرجعية التراثية لا من خارجها.

لكن المجتمع الجاهلي لا يعترف بالبطل خارج سلالة الدم، فينبذ أزر ويوصم بـ"اللقيط"، وتُعلق عليه المصائب التي تقع على الناس:

"إن المصيبة ما حلت بهم إلا لأنه يسكن بينهم".

وهنا يتجلى وعي الرواية النقدي تجاه النسق الاجتماعي، حيث تنفض على المفهوم القبلي للنسب، وتُقدّم بطلًا بلا جذور بيولوجية، يُثبت قيمته بالفعل لا بالدم، كما يتضح في قوله:

"كانت أمنيته أن يُخلد اسمه... لكنها كانت أبعد من القمر".

وتتحقق النبوءة في مشهد ملحمي، حين تفوز قمر في نزال "صنديد العرب"، وتصرخ أمام الكعبة:

"أزر ابن ذئبة الوادي".

إن هذا الإعلان لا يُنهي فقط مسار النبوءة، بل يُعيد تعريف النسب، ليس من أب أو قبيلة، بل من "ذئبة"، وحلم، يمثله رمز، من خيال بطولي.

وفي تأكيد أخير على البناء الرمزي، تُشاهد بثينة "الهالات النجمية" وهي تنتقل من الذئبة والغراب والعامرية إلى جسد أزر وتغوص في قلبه، وهذه الصورة لا تمثل مجازًا فقط، بل ذروة التحول الأسطوري للبطل، حين يُصبح جسده ملتقى الرموز الثلاثة: الحيوان، الطير، والمرأة النبوية، ويأتي الكاتب ليعمق هذه الصورة بالوصف قائلًا:

"وما هي إلا لحظات بعد ذلك حتى شاهدت بثينة أغرب مشهد كانت تراه في حياتها، وما كانت ستصدق لو أنها لم تره بنفسها حيث رأت شيئًا أشبه بالهالة الزرقاء النجمية تنفصل عن جسد العامرية .. وتمتطي هالة زرقاء نجمية أخرى انفصلت عن جسد الذئبة حواء .. ثم رأتها وهما تنطلقان بسرعة السهم تتبعهما هالة نجمية ثالثة

<sup>1</sup> -العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، مرجع سابق، ص ٢١٤

هي للغراب - نحو أزر الممدد فوق السرير لتغوص الهالات الثلاثة معًا في جسده عند موضع القلب وتختفي داخله"<sup>1</sup>

هكذا تُبنى نشأة أزر كبطلٍ يتجاوز الواقع التاريخي ليُولد في قلب الأسطورة، حيث لا تصنعه القبيلة، بل "الذئبة حواء"، والكاهن شق، والحلم، والنبوءة، والأم المقهورة، والسماء التي تشهد على اسمه.

وبعيد النص بهذا البناء تأويل الموروث الشعبي الجاهلي في ضوء سردية حدثية، تُحاور التراث من دون أن تُنكر رمزيته، بل تُفعّله كأداة لإنتاج البطل والهوية في آن.

فيما بعد، تتحول والدة قمر إلى "أم أربعة وأربعين"، وهي صورة رمزية مشحونة بالدلالات، إذ يجمع هذا الحيوان بين الخفاء والخطر، "والذي يظهر لنا في عقائد العرب القدماء بأجلى مظاهره شغف أهل البادية بحكاية مسخ الإنسان حجرا أو شجرا أو حيواناً"<sup>2</sup> وكأنها دلالة على اللعنة التي لحقت بها جراء تكذيب الكاهن، والذي توعدا بالمسخ إذا كانت تكذب

"تسخطين إلى ذات أربع وأربعين، إلا أن تقولي الحق ولا تكذبين.

لم تأخذ تهديده على محمل الجد وقالت متمسكة بجوابها :

لقد انقطع الحلم ولم أر ما حلّ بالقمر"<sup>3</sup>

ويكتمل البناء الرمزي حين يقتلها زوجها عامر من غير أن يعلم أنها زوجته، في استحضر لفكرة الجهل بالقرابة التي وردت في مآسي يونانية وأساطير عربية.

هكذا، يُبنى أزر كبطل رمزي منذ البداية، لا بسبب نسبه، بل لأنه مولود خارج النسب، ومُنشأ في حضن الحيوان، وداخل قدر أسطوري تُحدده رؤى الكهنة، وتمنحه الطبيعة حمايتها، ويتلقى عاطفة الأمومة من بثينة والذئبة.

#### المطلب الثاني: المعتقدات الجاهلية في تشكيل الصراع والمصائر داخل السرد

يُعدّ الصراع في رواية أزر ابن ذئبة الوادي محرّكاً سردياً يتجاوز طابعه الدرامي إلى وظيفة رمزية أعمق؛ إذ إنه ينبني على استدعاء ممنهج لمفاهيم محورية في المخيال الجاهلي كالنسب والشرف وما يرتبط بهما من معتقدات غيبية، ثم يُعاد تأويل هذه المفاهيم داخل البنية السردية لتكشف الرواية عن انحيازها القيمي إلى الحرية

1 - أزر بن ذئبة الوادي - أحمد آل حمدان - مصدر سابق، ص ٦٩

2 - الأساطير العربية قبل الإسلام، محمد عبد المعيد خان ، - القاهرة- 1937، ص 49

3 - أزر بن ذئبة الوادي - أحمد آل حمدان - مصدر سابق، ص ٤٤



الأخلاقية، والبطولة الإنسانية التي تتجاوز المحددات القبلية، ومن ثم، لا ينفصل بناء الصراع في الرواية عن التوظيف الواعي للموروث الجاهلي بوصفه مرآة تعكس طبيعة العقل الاجتماعي العربي قبل الإسلام، بكل ما يحمله من انفعالات وموجهات عقدية تمزج بين الدين والأسطورة والتقاليد.

منذ وعي أزر بذاته، يتشكّل الصراع الأولي على أساس النبذ الاجتماعي بسبب غياب النسب، إذ يُطلق عليه لقب "اللقيط"، ويتعامل معه المجتمع ككائن ناقص الهوية، تقول الرواية:

"فقد كان الناس جميعهم يتجنبونه ويكرهونه، ليس لأنه مجهول النسب فقط، بل لأنهم يعتبرونه فآل شؤم أيضاً؛ فقد مات سيدهم ثُمير بن ربيعة بعد أن كفه بثلاثة أشهر فقط؛ ومنذ ذلك الحين، والناس لا تمرّ بهم مصيبة كبيرة أو صغيرة إلا وألصقوها به، فإن حضر قالوا جاء وجلب المصيبة معه، وإن غاب قالوا إن المصيبة ما حلت بهم إلا لأنه يسكن بينهم"<sup>1</sup>.

هذا النبذ يُمثّل صورة سردية لمعتقد جاهلي متجذّر يُعلي من قيمة النسب بوصفه المصدر الوحيد للمكانة، فقد كان "لشدة اهتمامهم بالقرابة والصلة العصبية ولحمة النسب الأبوية اهتموا بالأنساب اهتماماً عظيماً. فكان الواحد منهم يعرف نسبه ونسب قبيلته محدداً مضبوطاً، ونرى أثر ذلك في أشعارهم التي تفيض بذكر الآباء والأجداد والبنين والأحفاد؛ ولشدة اهتمامهم بالنسب عرف قوم منهم كانوا مشهورين بمعرفة أنساب العرب حتى سمو بالنسابين"<sup>2</sup>.

هذا الرفض الاجتماعي لا يتوقف عند الإقصاء، بل يتجسد فعلياً في تدبير مؤامرة تستهدف أزر بتهمة السرقة، حين يُزرع "خاتم ملك اليمن" في غرفته، لِيُدان ويُسجن، تتجلى هنا آلية "النبذ الجماعي" بوصفها امتداداً لمعتقد الجاهلية في حماية الشرف الجمعي على حساب الفرد، خصوصاً إذا كان غريباً أو منبوذاً، وقد أشار عبد الله الغدامي إلى هذا النوع من التوتر في البنية الاجتماعية العربية بأن القبيلة تحتفظ بسلطة معنوية تتجاوز القانون، وهي ما تخلق الشعور بالنقص أو الانتماء تبعاً للرضى أو الرفض حتى تحولت النحن إلى الأنا في أواخر العصر الجاهلي<sup>3</sup>.

غير أن الرواية تعتمد إلى زحزحة هذه المفاهيم حين يظهر الصراع في نزال "صنديد العرب"، حيث يتواجه أزر مع قيس، فتتصاعد الأحداث حين يتبين أن قيس قد ارتدى قلادة تحتوي تميمة سحرية منحتة قوة خارقة، صنّعت من "جلد الماعز" وخُفرت عليها رموز غريبة. هذا الحضور الصريح للسحر يفتح باباً لتوظيف آخر

1 - السابق، ص28

2 - علي الجندي - تاريخ الأدب الجاهلي - مرجع سابق - ص95

3 - انظر: النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، عبد الله الغدامي، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، 2005، ص 143

من المعتقدات الجاهلية، حيث اعتقد القدماء بأن " العالم بكل مظاهره المتنوعة يخضع لترابطات وقوانين وقواعد مُعيّنة، واعتقد أن معرفته بتلك الترابطات وقواعدها، تساعد في السيطرة على الطبيعة المحيطة به وإخضاعها لرغباته ومصالحه؛ فهو يستطيع مثلاً استجلاب الأمطار عن طريق ممارسات سحرية مُعيّنة، تدفع الطبيعة مجبرةً للاستجابة، كما يستطيع شفاء الأمراض، والقضاء على الأعداء، ودفع الكوارث الطبيعية بالطريقة نفسها، وقد تجمّعت لديه عبر القرون مجموعة من القواعد الذهبية التي تؤلف في مجموعها سفرًا متكاملًا للسحر. " <sup>1</sup>

وفي هذا السياق، تمثل شخصية "العامرة" التي تكشف الخديعة نموذجًا للضمير الشعبي الذي يتحدى فساد السلطة، حين تخترق الحلبة وهي متلفحة بالسواد، يظللها غراب أسود، وتخطب القضاة:

ما كنت أعلم أنني سأعيش حتى أرى سادة مكة لا يراعون الذمة !

أدرك السادة أن أمرهم قد كُشف، واصلت العامرة كلامها تخاطب الكهنة الذين كانوا يشهدون النزال فوق هودج يحملها العبيد، وقد كانوا جميعهم من الكهنة حديثي السن الذين لم يذع صيتهم بعد عند العرب؛ ولذلك كان من السهل شراء ذممهم:

- ألا تخجلون من أنفسكم أيها اللكع الفسوق؟! تشهدون الباطل بأعينكم ولا تتكرونها ألا تبا لكم وشانت الوجوه !  
!!! <sup>2</sup>

يؤدي هذا الفضح العلني إلى لحظة انكشاف ضمير قيس، الذي يرمي القلادة ويقول:

«ألا بنس لفوز لم يحصده ذراع الفتى!»، ثم يتنازل عن النزال ويصادق آزر، بهذا تُعيد الرواية تعريف البطولة ضمن البنية السردية بوصفها فعلاً أخلاقياً لا مجرد نزال جسدي؛ فانسحاب قيس بعد فضيحة التميمة السحرية يُمثّل تحوُّلاً سردياً من منطق القوة الجاهلية إلى منطق الضمير، بما يعكس انتقال البنية العميقة من ثقافة الثأر إلى ثقافة الاعتراف.

كما يظهر الصراع بين إرادة الفرد وسلطة الجماعة في لحظة درامية أخرى، حين يتنازل آزر عن النصر لصالح خصمه كعب، بشرط واحد: أن تمنع عامر بن لكيز من وأد ابنته.

هنا يُعاد توظيف أحد أبشع المعتقدات الجاهلية، وهو وأد البنات، كمدخل لكشف جوهر التحول الأخلاقي في شخصية البطل، إذ لم تعد البطولة فعل قتل، بل فعل حماية الحياة.

1 - مغامرة العقل الأولى، فراس السواح، مؤسسة هنداوي، 2022، ص 18

2 - آزر بن ذنبه الوادي - أحمد آل حمدان - مصدر سابق، ص 126

حيث كان يشكل "وَأد البنات" أحد أبرز المظاهر القاتمة في الوعي الجاهلي، وقد وظّفته الرواية لا بوصفه مجرد خلفية تاريخية، بل كرمز مكثّف لقمع الحياة ومحو الجمال والحنان قبل أن يُولد، في استدعاء هذا الفعل، تتجلى الرواية كخطاب مضاد لثقافة الموت الجاهلية، حيث يُجسّد الوأد بوصفه ممارسة تمارسها السلطة الذكورية خوفاً من العار، وهو خوف متخيل، لكنه يتحول إلى قدر قاتل لطفولة بريئة، يعكس هذا التوظيف الأثر العميق للأسطورة الاجتماعية في تشكيل السلوك الجمعي، إذ تغدو الأنثى رمزاً للخطر، وتُطمس معالم إنسانيتها قبل أن تنبض بالحياة.

وتمضي الرواية إلى ما هو أبعد من التوثيق السردي، حين تجعل من فكرة الوأد أداة رمزية لقراءة العنف البنيوي الذي تُمارسه الثقافة ضد المختلف والضعيف، فالبنات الموءودة ليست فرداً بعينه، بل صورة مركبة لكل ما يُخشى أن يهدد النظام الأبوي: الحلم، الحب، الحرية، والانبعاث. وهنا يكمن البعد الأسطوري في التوظيف، حيث لا يظهر الوأد كممارسة تاريخية فحسب، بل كرمز دائم لحالة القمع الرمزي والفعلية التي تتكرر بأشكال جديدة في الأزمنة المختلفة، ومن خلال معارضة هذه الممارسة داخل النص، تنتصر الرواية لقيم الحياة والاختيار، وتعيد الاعتبار لصوت الأنثى ككائن وجودي له الحق في الحلم والتعبير.

وعلى مستوى الصراع الوجودي، تنقلب المفاهيم الجاهلية كلها في لحظة ذروة حين يُكشف لأزر أن أمه الحقيقية هي المرأة التي داوته في السجن، والتي وضعت على سفح جبل أبي قبيس بعد أن عصت أمر القتل، تقول له قبل موتها:

"وصيتي لك هي أن تبحث عن طفل تركته أمه قبل أكثر من سبعة وعشرين عاماً عند سفح جبل أبي قبيس .. أخبره أن أمه اختارت فراقه رغماً عنها .. وأنها ما توقفت لحظة عن حبه ورؤيته في خيالها وتحصينه كل يوم ... أخبره أن روحها ستظل دائماً إلى جواره .. وأنها كانت تتوق دائماً إلى لقائه وأنها ماتت اليوم وهي في منتصف طريقها إليه.<sup>1</sup>

هذه اللحظة، ذات الشحنة العاطفية القوية، تقوّض المفهوم الجاهلي للنسب الوراثي، وتستبدله بنسب عاطفي - روحي - أخلاقي، حيث تكون الأم هي من تحب وتضحى، لا من تنجب فقط.

ثم يأتي دور الحروب حيث يشكّل الحرب في المخيال الجاهلي أكثر من مجرد صراع مسلح، فهو طقس من طقوس الفخر والبطولة، وآلية لحماية الكرامة، وترسيخ المكانة بين القبائل.

1 - أزر بن ذنبة الوادي - أحمد آل حمدان - مصدر سابق، ص ٢٧٣

حيث يعتمد السرد في الحكايات البطولية على المشاهد "التي تتكرر في كثير من الأحيان بصيغ متشابهة مثل وصف ساحة القتال، وعدة المقاتل، ومقدرته القتالية والمعركة والانتصار"<sup>1</sup>

وتُبرز الرواية هذا المعنى من خلال استحضار الحروب بوصفها جزءاً أصيلاً من البناء السردى، لكنها تتجاوز الرؤية التقليدية للحرب كحالة فوضى أو عنف قبلي، لتُظهر في لحظات فاصلة قدرة العرب على التوحد والتضامن لمواجهة عدو خارجي يهدد وجودهم، وهو توظيف يربط بين البنية الواقعية للتاريخ الجاهلي والبعد الأسطوري لوحدة المصير.

وتأتي لحظة التحالف أو الترابط بين القبائل في الرواية كتجلى نادر لإمكانية تجاوز العصبية والانقسام، إذ تخلق الحرب تهديداً وجودياً يعيد تشكيل الوعي الجمعي ويحوّل القبائل المتفرقة إلى جسد واحد، ومن خلال هذا التحول، تمنح الرواية القارئ فرصة لتأمل المفارقة العميقة بين التمزق الداخلي والانتماء المشترك، بين سلوكيات الثأر القديمة والحاجة إلى التضامن أمام الخطر، فتغدو الحرب هنا مجالاً لا لاختبار القوة فحسب، بل لاختبار الانتماء والولاء والمصير المشترك.

كما تُوظف هذه الحالة سردياً لإبراز نمو الشخصية الفردية والجماعية، إذ تتكوّن البطولة في زمن المواجهة، وتظهر القيم الكبرى مثل الفداء، والنخوة، والتضحية، والتكامل القبلي، ويمنح هذا التوظيف الرواية طابعاً شبه ملحمة، حيث تُستحضر الحرب لا ككارثة، بل ك لحظة كشف واستنهاض للروح الجمعية العربية، الموزعة والمشتتة، لكنها قادرة على أن تتحد حين يُستدعى العمق المشترك والعدو المشترك، وهكذا تُعيد الرواية، من خلال هذا العنصر، تشكيل الأسطورة العربية عن الذات، القوة، والتحول من الانقسام إلى الوحدة.

ويصل الصراع إلى ذروته حين تخطف قمر، وتجتمع القبائل العربية خلف آزر لخوض المعركة ضد الفرس، ويخطب فيهم خطبة تحوّل المعركة من غرض شخصي إلى مشروع قومي:

"أيها العرب .. إن هذه الحرب هي حرب العزة والكرامة .. وحق رب إبراهيم لو أن شياطين البر والبحر اختطفوا فتاة عربية حرة كانت أو جارية، لما تركتها تُسبى وقد استجارت بي أنا الفارس العربي، أنا الحر الأبى" !!!<sup>2</sup> «.

هذا التصعيد يكشف التحول من صراع فردي إلى ملحمة جماعية، ومن قتال بدافع النسب إلى قتال دفاعاً عن الشرف الجمعي والكرامة، وهي قيم عربية أصيلة، ولكن الرواية تُعيد تأويلها من منطلق حديث لا يستند إلى

1 - نبيلة إبراهيم، البطولة في القصص الشعبي، دار المعارف، القاهرة، 1977، ص 20

2 - السابق، ص ٣٧٣

العصبية القبلية، نحو ما يمكن تسميته بـ"التحالف الوجداني"، فالتجربة المشتركة للألم تُعيد إنتاج الهوية خارج القوالب القبلية.

وفي خاتمة هذا المسار الملحمي، يعود آزر من المنفى الرمزي إلى المركز البطولي، وتُستعاد النبوءة التي أعلنها الكاهن، فيتحقق له الخلود، لا لأنه ابن قبيلة، بل لأنه صانع مصير. تقول الرواية: "الدرس الأهم الذي تعلمه... هو أن الإنسان لا ينال المجد بلقب قبيلة، بل بفعل يده".

وهكذا تنجح الرواية في توظيف المعتقدات الجاهلية بصيغة مزدوجة: أولاً باعتبارها خلفية ثقافية تُشكّل الوعي الجمعي، وثانياً كآليات سردية يُعاد من خلالها بناء القيم والمصائر في ضوء رؤية إنسانية حديثة تُعيد الاعتبار للفرد، والتجربة، والاختيار الأخلاقي، لا للنسب، والغلبة، والموروث الصلب.

ولا يقتصر توظيف الرموز الشعبية في الرواية على البعد الجمالي أو السردية، بل يتجاوز إلى تمثيل الذاكرة الجمعية والهوية الثقافية للمجتمع العربي ما قبل الإسلام.

"فالأسطورة الاجتماعية الجاهلية ترسم لنا حياة البدوي بما عنده من ذخائر فكرية استندت بها على واقع وخيال تصويري، أعطى نفائس إنسانية عظيمة، وأفق محدود استمد ماءه من البيئة الجاهلية الفطرية"<sup>1</sup>

فالكائنات الرمزية مثل الغراب والذئبة، وكذلك الشخصيات الكهنوتية كـ"شق"، تشغل بوصفها حوامل لقيم وقوانين سائدة، وتُستخدم في النص لإعادة مسالة هذه القيم ضمن منظور أخلاقي حديث، وبالتالي، فإن إعادة إنتاج هذه الرموز ليس فقط فعلاً سردياً، بل هو فعل ثقافي يُعيد بناء الوعي الجمعي من خلال الفن.

أما الصراع في الرواية فإنه يشكل مجالاً سردياً كثيفاً بالتوترات الموروثة من الفكر الجاهلي، خصوصاً ما يتعلق بمفاهيم الشرف والنسب والغلبة، وهي قيم مركزية في المجتمع الجاهلي، وتستمر الرواية في استحضارها وتفكيكها ضمن بناء تخيلي يتراوح بين الاستنساخ والنقد.

في اللحظة الأولى من وعي آزر لذاته، كان مطارداً بلقب "اللقيط"، إذ ظل المجتمع المكي ينظر إليه على أنه مجهول النسب، وهي نظرة تعكس ذهنية جاهلية تنظر للنسب بوصفه الهوية والشرعية، وهذه النزعة هي التي تحرك مسار الصراع الأول في الرواية، حين يكبر آزر ويبدأ في تدريب قمر على الفروسية، وهو ما يُعد خروجاً على الأعراف الجاهلية من ناحيتين: تعليم النساء القتال، وتجروء مجهول النسب على خرق دور القبيلة في تأهيل أبنائها، خصوصاً بعد فوزها بالنزال وإعلان اسم آزر ليعلق على أستار الكعبة لسنوات، ونتيجة لذلك، تقرر القبيلة الكيد له بزرع خاتم ملك اليمن في غرفته، ليُتهم بالسرقة ويؤسر.

1 - الأسطورة عند العرب في الجاهلية، حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1998، ص

فكرة "النبد" الاجتماعي هنا يُعاد إنتاجها بمكر سردي، إذ يتم تلفيق التهمة من خلال سلطة تدّعي الحفاظ على الشرف العام، لكنها في حقيقتها تمارس قمعاً طبقيّاً.

حيث "تؤكد الجماعة نفسها عن طريق العقوبات التي تطبق باسمها في مواجهة الأفراد الذين لا يحترمون هذه القوانين، وهذا ما سمح لدور كهائم أن يقول إن العقاب له في كثير من الأحيان وظيفة طقسية تقوى من التضامن داخل الجماعة"<sup>1</sup>

ويُطرح دور السحر في الرواية لا بوصفه تقنية عجائبية فحسب، بل يعبر عن أزمة في مفهوم البطولة، إذ يُظهر كيف يمكن للخصم أن يلجأ إلى الغش لاختراق قواعد النزال الشريف، مما يُثير سؤالاً أخلاقياً حول معنى النصر.

وتأتي العامرية لتكسر هذا النسق، إذ تظهر علناً وتفصح استخدام التميمة، فتعيد التوازن إلى النزال، مما يشعر "قيس" بالإهانة لأنه انتصر بالسحر، فيتنازل عن الفوز ويصير صديقاً لأزر، مما يعكس تحولاً في المفهوم الجاهلي للعداوة: من الغلبة إلى التحالف القيمي.

ثم تستمر الرواية في بناء مصير أزر من خلال سلسلة من الانقلابات الرمزية: يُسجن ظلماً، ثم يجاوره "ليث"، أحد أمراء اليمن، ويتحول العداء إلى صداقة، نتيجة لحواراتهم عبر الجدار، وهذا التحول يعبر عن إمكانية تجاوز العصبية الجاهلية.

أما المفاجأة السردية الأكبر، فهي اكتشاف أزر أن المرأة التي عالجته أثناء مرضه في السجن هي أمه الحقيقية، التي كانت قد عصت أمر الحارث بقتل المولود، فهربت به إلى جبل قيس، ثم إلى اليمن، هذا الاكتشاف يهدم كل تصورات عن النسب، ويحول فهمه للانتماء، كما يتبين له أن مربيته بثينة هي خالته، مما يضيف طبقة جديدة من التهجين الأسري، حيث لا تُعرف القرابة إلا متأخراً، ويكون الرابط التربوي أسبق من البيولوجي.

وتتجلى ذروة الصراع عندما يعود أزر إلى مكة، ويواجه الحارث، وتتكشف الحقيقة، لكن قمر تتنازل عنه كي لا تقع الحرب مع ملك اليمن الذي طلب يدها، وهنا يتجلى النفس التراجيدي في الرواية، حيث تتحكم السلطة والمصلحة في مصير الحب.

وفي خاتمة المطالب، نبلغ ذروة الملحمة عندما تخطف قمر في طريق القوافل، وتجتمع القبائل العربية تحت قيادة أزر، في حملة على الفرس لاستعادتها ثم يُقتل قيس وليث، وينتصر أزر، فتعود قمر، ويُستعاد الشرف.

<sup>1</sup> - النقد الاجتماعي، بيبير زيماء، مرجع سابق، ص 23

هذا المشهد يُعيد إنتاج قيمة الفداء العربي، ولكن بتصور جديد للبطولة، لا يقوم على النسب، بل على التحالف القيمي والتجربة الإنسانية المشتركة ممثلاً لقيمة الشجاعة فالنظام القبلي الجاهلي كان يقوم على الكرم والشجاعة بوصفهما "قيمتان جوهريتان في البقاء الإنساني البدوي"<sup>1</sup>

وهكذا، تعيد الرواية رسم مفهوم الصراع من خلال توظيف معتقدات جاهلية تقليدية (الشرف، النسب، السحر)، لكنها تُعيد تأويلها ضمن رؤية سردية حديثة، تفضح الانحيازات، وتنتصر للقيم الأخلاقية على الأعراف الوراثة.

### المطلب الثالث: تحولات التخيل الرمزي بين الأسطورة والهوية السردية

يُمثل هذا المطلب تنويعاً للآليات السابقتين اللتين استعرضنا كيف وظفت الرواية المعتقدات الجاهلية في نشأة البطل ومسار الصراع، لكنه يذهب إلى أعمق من ذلك؛ فهو يركّز على الكيفية التي أُعيد بها دمج الموروث الشعبي والأسطوري داخل البنية السردية المعاصرة، كآلية فنية تنسج رمزية النص وتبني فضاءه الجمالي والدلالي، وهذا الاندماج السردى بين الموروث والتخيل يُعيد النظر في علاقة الرواية العربية الحديثة بالتراث، ويجعل من المعتقد الشعبي حقلاً مولّداً للمعنى داخل النسيج الفني، لا مجرد موروث خام.

أولاً: إعادة تشكيل الكائنات الرمزية في ضوء التخيل الشعبي

من أبرز تجليات هذا التوظيف السردى للموروث الشعبي، شخصية العامرية، التي يُقال إنها "ليست حقيقية، بل ربما تكون أسطورة متخيلة"، فهذه الشخصية ترتبط بحكاية حب بين امرأة بشرية وشيطان من الجن يُدعى "أعصم"، مما يُدخلها ضمن نمط "الاتحاد المستحيل" بين البشر والجن، وهو نمط شائع في الحكايات الشعبية العربية، وكأن الموروث الشعبي العربي يمزج بين التاريخي والأسطوري في نماذج سردية تُجسد أزمة الإنسان مع الغيب والطبيعة.

ويبلغ هذا التوظيف ذروته حين تصف الرواية لحظة موت العامرية بطعنيتين على يد آزر، الأولى يُخرج فيها جسدها دمّاً أحمر، والثانية دمّاً أسود.

"وبينما كانت اليمامة بنت أدحج العامرية تحرق إلى غرابها الذي ابتعد كثيراً في الأفق ولا تزحزح بصرها عنه وشفقتها ترسمان ابتسامة غامضة، إذ تلقت طعنة قاتلة في ظهرها أنفذها إليها آزر مستخدماً سيفه، ثم أعقبها بطعنة أخرى بواسطة خنجر أسود خاص حفر به لحمها وعظامها حتى أنشب رأسه الحاد في قلبها؛ لتسقط

<sup>1</sup> - النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، عبد الله الغدامي، مرجع سابق، ص 146

العامة بعدها على ركبتيها أرضاً، يسيل من فمها المبتسم خيط دم أحمر يُعلن عن نهايتها، وخيط دمٍ آخر أسود مجهول المصدر، لا يخرج عادة من أبناء بني البشر<sup>1</sup>.

هذا التمييز اللوني يُحيل إلى رمزية التطهير من الشرّ، لا بوصفه موتاً جسدياً فحسب، بل كتحرير روحي من سيطرة الشيطان، وفي مشهد بالغ التخيل، تندمج الهالات النجمية للعامة، الذئبة، والغراب داخل جسد أزرق عند موضع القلب، وكأن كل تلك الكائنات الأسطورية قد تحوّلت إلى طاقة روحية تُؤسّس للبطولة داخله.

ثانياً: الطقوس والكائنات الغيبية كأدوات لإعادة إنتاج السرد

تستدعي الرواية رموزاً طقسية راسخة في المخيال الشعبي، مثل الغراب الذي يُرافق العامة، ويُقال إنه كان جنياً "أحبها وخوكم في قبيلته"، فتحوّل إلى طائر يحرسها، وهذا التداخل بين الحيوان والجن والرمز لا يهدف إلى بث الغرائبية، بل يُنتج جمالية سردية تحافظ على التوازن بين الأسطورة والوظيفة؛ فالغراب هنا لا يرمز فقط إلى الموت كما في الفولكلور، بل إلى الحراسة، والارتباط الروحي، بل وإلى الذاكرة المظلمة التي تتعالى فوق شخصيات الرواية في لحظات الحسم.

وتُوظف الرواية أيضاً مشهداً طقسياً حين تدخل امرأة إلى الكاهن "شق" وتردد سبعا: "لبيك شق"، ويُقدّم هذا المشهد بزوايا سرد خارجية، مع تركيز على الإيقاع المتكرر للعبارة، ويُظهر الوصف الطقسي بوصفه رمزاً للخضوع للغيب، مما يرسّخ حضور الكاهن كسلطة سردية تحدد المسار القدري للشخصيات.

وهنا يعدّ حضور الكهنة واتباع تعاليمهم من أبرز المظاهر التراثية والأسطورية التي ارتبطت بالعصر الجاهلي، حيث كانوا يحتلون موقعا رمزياً في بنية المجتمع الجاهلي بوصفهم وسطاء بين الإنسان والمجهول، ومنجمين بمصائر الأفراد والجماعات.

وقد استفادت الرواية من هذا المخزون الثقافي، فاستحضرت صورة الكاهن ليس بوصفه شخصية هامشية، بل كسلطة معرفية وروحية تفرض توجيهاً خفياً لمسار الأحداث ومصير الأبطال، وبهذا التوظيف، تعيد الرواية إنتاج بنية اجتماعية سابقة للإسلام، تقوم على الخضوع للغيب والخرافة، ما يجعل من حضور الكاهن أداة سردية تعكس ضياع الإنسان الجاهلي بين نبوءة وقدر، وبين موروث يتحكم بمصيره، "فمنزلة كهانهم في الجاهلية كانت كبيرة، إذ كانوا يعتقدون أنه يوحى إليهم، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التي تحاورها"<sup>2</sup>.

1 - أزرق بن ذئبة الوادي - أحمد آل حمدان - مصدر سابق، ص ١٦٥

2 - العصر الجاهلي، شوقي ضيف- ط22 - دار المعارف - مصر - 2000- ص421



وتكتسب هذه الصورة بعداً رمزياً مهماً، إذ لا تمثل فقط حضور الكاهن كشخص، بل أيضاً استمرار منظومة فكرية تشرعن الخضوع للغيب وتقييد الإرادة الحرة، وبذلك، فإن الرواية لا توظف الكاهن كشخصية فولكلورية فحسب، بل تفتح من خلاله أفقاً نقدياً للثقافة السلطوية التي سادت في المجتمعات الجاهلية، كما تقيم مقارنة ضمنية مع أنماط التسلط المعرفي المعاصر. ويلاحظ أن هذا التوظيف يتجاوز وظيفة المحاكاة التاريخية للأسطورة، ليُعيد إنتاجها بوصفها أداة رمزية لإدارة الصراع السردي، وفق ما يشير إليه عبد الله إبراهيم في قراءته لوظيفة الأسطورة كآلية تأويلية داخل النصوص العربية الحديثة<sup>1</sup>.

ثالثاً: تمثيل القدر والمصير في ضوء التخيل الحديث

تُكثّف الرواية حضور المعتقد الشعبي في بنية المصير من خلال تقنية النبوءة التي تبدأ في الطفولة وتتردد طوال السرد، حتى تتحقّق في النهاية،

منذ اللحظة الأولى يقول نمير:

«قلبي يُحدثني أن لهذا الطفل سرّاً وخبراً، وأنه يُؤازر قومه حين يكبر»،

وترد نبوءة الكاهن شق:

«تلدن فتاة تُسميها قمر... حارسها يُخلد اسمه في تاريخ العرب»، فقرّب الكاهن شق الرضيع منه ومسح على جبينه بكفه الوحيدة وقد هاله أن يرى ما كان مكتوباً من الأسرار على تلك الجبين، فقال محذراً:

- إنَّ لهذا الفتى نبوءة تنتظره موته سيكون خطأ جسيماً.

وما نفعل - قالت الأخت - شرّ علينا أيها الكاهن<sup>2</sup>؟

وهذه النبوءات ليست زخرفة خارجية، بل تُنتج الخط السردي الذي يسير وفقه البطل، فيما يسميه كامبل بـ"الرحلة القدرية" التي تُجبر البطل على خوض المصير حتى لو لم يردّه.

حيث تُعد النبوءة وتفسير الأحلام من أهم الأدوات التي استخدمها العرب في الجاهلية لفهم مصائرهم واستباق الأحداث الكبرى، وقد كان للكهنة دور مركزي في تأويل هذه الرؤى، بوصفهم أصحاب علم غيبي متوارث، وتستثمر الرواية هذا التصور القديم توظيفاً سردياً دقيقاً، حيث تُعالج الرواية النبوءة بوصفها وسيلة لتوجيه السرد، حيث تتحول الأحلام إلى رموز توقعية تُفعّل التوتر وتؤسس للقدر الروائي، في استعادة لوظيفة الحلم في الأساطير كمكوّن معرفي وإرشادي لا مجرد خيال شعبي.

1- انظر: السردية العربية بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، عبد الله إبراهيم، مرجع سابق

2- أزر بن ذنبة الوادي - أحمد آل حمدان - مصدر سابق، ص ٢٩٦

يرتبط هذا التوظيف بالبنية الأسطورية للوعي الجاهلي، حيث لا يُنظر إلى الحلم باعتباره نشاطاً باطنياً عابراً، بل باعتباره نصاً موازاً للحقيقة، مفتوحاً على احتمالات العظمة أو الفجيعة، ومرتبباً بسلطة الكاهن التي تمنح التفسير بعداً إلزامياً، كأن الكاهن لا يقرأ الحلم، بل يكتبه من جديد، ومن خلال هذه التوليفة، تضع الرواية الشخصية بين قطبين: قطب الحلم كفضاء حر داخلي، وقطب النبوءة كتقييد خارجي يُفرض عليه، مما ينتج صراعاً نفسياً وفكرياً عميقاً في ذات البطل.

كما يفتح هذا العنصر مجالاً للتأمل الفلسفي: هل تتحقق النبوءة لأنها قيلت، أم لأنها استُحضرت في الحلم ثم فُسرَت؟ وهل الكاهن مرآة للمستقبل، أم صانعه الرمزي؟ ومن هنا، تسهم الرواية في زعزعة يقين القارئ حول الحدود بين الحلم والواقع، بين القدر والاختيار، في إطار أسطوري يستعيد التراث الجاهلي لي طرح من خلاله أسئلة إنسانية كبرى حول الحرية والمصير والمعرفة.

إلا أن الرواية لا تسير في اتجاه الحتمية السردية فقط، بل تُفعل لحظات من الاختيار الأخلاقي، تُظهر أن المصير ليس مفروضاً بالكامل، بل يُشكّل عبر الفعل. في النهاية، يقول آزر: «الدرس الأهم الذي تعلمه... هو أن الإنسان لا ينال المجد بلقب قبيلة، بل بفعل يده».

وهنا يتقاطع المعتقد مع الحادثة؛ فالرواية تُعيد بناء الأسطورة على أرضية جديدة تؤمن بالمبادرة الفردية.

رابعاً: الفضاء المكاني بوصفه إعادة تخيل للمقدّس

يُلاحظ القارئ أن الرواية تعيد تخيل بعض الرموز الدينية كالكعبة، ويتحوّل المكان إلى فضاء رمزي للحماية، والوعد، والتحقّق الأسطوري، كما تُعاد طقوس الصراع في نزال "صنديد العرب" بآليات تُشبه المسرح الشعبي، حيث تجتمع القبائل من كل مكان، ويُعلّق اسم الفائز على الكعبة نفسها، في تمثيل للتكافؤ بين البطولة والقداسة، بين النص والرمز.

خامساً: الأسطورة بوصفها مرآة للهوية العربية

في النهاية، لا تُوظّف الرواية الموروث الشعبي والأسطوري بوصفه خلفية جامدة، بل تُفعّله بوصفه بنية دينامية تحاور مفاهيم مثل النسب، والحب، والانتماء، والمصير.

ومن خلال الاستدعاء الذكي للغراب، الذئبة، الكاهن، النبوءة، وأسطورة صنديد العرب، تُبنى رواية آزر ابن ذئبة الوادي على تفاعل مستمر بين القديم والجديد، بين الرؤية الحداثيّة والبنية المعتقدية، مما يجعلها نصاً يُعيد إنتاج الموروث بأسلوب معاصر، دون الوقوع في التبسيط أو التزييف.

وكذلك تُعيد الرواية تمثيل الأنثى في بنية الأسطورة، بحيث تُقدّم كفاعل سردي مشارك في صناعة المصير، كما في شخصية الذئبة حواء، والعامرية، وقمر، وبثينة، هذه الشخصيات لا تكتفي بالتأثير العاطفي، بل تُمارس توجيهًا بنيويًا لمسار البطولة، وهو ما يكسر التراتبية الجندرية التي طبعت الأسطورة الجاهلية.

فالعامةرية، مثلاً، لا تُقدّم فقط كضحية للحب الممنوع، بل تتحوّل إلى كيان شبه أسطوري يربط بين الإنس والجن، بين الجسد والرمز.

كما تُقدّم الذئبة "حواء" كأم بديلة تمارس دورًا تربويًا ووقائيًا، في تقاطع مع تمثيلات الأم الأسطورية في الثقافات الأخرى، هذا الحضور النسائي الرمزي يكشف عن وعي الرواية بإمكانية إعادة قراءة الموروث من منظور أكثر إنصافًا للمرأة، خلافًا للصور النمطية السائدة في الذاكرة الجاهلية.

ومن أبرز الأمثلة على هذا الدمج ظهور شخصية "العامرية"، وهي امرأة مهيبّة تحمل على كتفها غرابًا أسود، وتُخشى في مكة بسبب هذا الطيف الحيواني المرافق لها، ففي الحكاية الجاهلية، نجد للغراب دلالة ثنائية: فهو رسول الموت من جهة، وحامل النبأ الغيبي من جهة أخرى، وقد ربطت به الأساطير العربية مشاعر الفقد والغربة.

لكن الرواية هنا تحكي أن الغراب ليس مجرد طائر، بل جنّي حوكم في قبيلته لأنه أحب العامرية، فحوّل إلى طائر يحرسها، وهنا تتجلى لعبة التخيل الروائي، حيث يتم تحويل الموروث إلى تمثيل رمزي للحماية والهيبة في آنٍ معاً.

وهذه الترجمة الحكائية تتقاطع مع آليات الحكاية الشعبية، حيث كثيراً ما تتحول الكائنات الغيبية إلى شخوص حيوانية ترافق البطل أو تقيم معاهدات مع البشر.

فالعامةرية، بدورها، تعقد عهداً مع آزر ليقتلها حين يأمر بذلك، لأن الشيطان الذي حاول امتلاكها من الجن قد سكن جسدها، وهي تنتظر لحظة الطهارة، وفي اللحظة الحاسمة، يطعنها آزر طعنيتين: الأولى تخرج دمًا أحمر فتموت جسدياً، والثانية تخرج دمًا أسود، رمزاً لقتل الشيطان في داخلها، هذا المشهد يحمل تقاطعات واضحة مع تقنيات المسرح التراجيدي، كما أنه يوظف الخرافة بطريقة رمزية تكثف الصراع بين الخير والشر داخل الجسد، وليس فقط خارجه.

وهنا تظهر فكرة الثأر وهي فكرة أصيلة في المعتقد الجاهلي فقد أقسمت العامرية أن تأخذ بثأر حبيبها من الجني يغوث الذي حقد على أصيل وكان سبباً في تحوله إلى غراب يلزم العامرية فعقدت العهد أن تقتله وتنتقم مهما طال الزمن وحتى إن كان الثمن حياتها.

فالثأر حتى من الجن يعد تصعيد أسطوري لفكرة الكرامة والانتقام في الوعي الجاهلي

حيث يُجسّد الثأر في العقليّة الجاهليّة قيمة كبرى لا تقبل المساومة، إذ يرتبط بالشرف، والكرامة، وحق الدم، ويُعدّ التفريط فيه تفريطاً في الوجود القبلي ذاته، وتبلغ هذه القيمة ذروتها الأسطورية حين يمتدّ منطق الثأر إلى ما وراء البشر، كما توظّف الرواية، حيث يُطلب الثأر حتى لو كان القاتل من الجن، في مشهد يتجاوز الواقع المألوف إلى فضاء الخرافة والمقدّس، ويعكس مدى تجدّر فكرة الانتقام في بنية الوعي العربي القديم، حتى لو استلزم مواجهة الكائنات اللامرئية.

وفي هذا التوظيف، تمنح الرواية الثأر وظيفة رمزية تتجاوز استرداد الدم، ليصبح مظهرًا لانتصار الإرادة الإنسانية على الغيب، حيث لا يردع صاحب الثأر غموض العدو ولا طبيعته الخارقة، لأنه يرى أن الكرامة لا تعترف بالحدود الطبيعية أو الميتافيزيقية، وهنا يتداخل الواقعي بالأسطوري، فتغدو الجن تمثيلاً للخصم المطلق، الغامض، غير القابل للمواجهة المباشرة، لكنه ملزم بالردّ عليه باسم الشرف.

كما تستثمر الرواية هذا العنصر لتصعيد التوتر السردى، وتكثيف الطابع البطولي للشخصية التي تُقدّم على هذا الفعل، فتظهر كما لو أنها تخترق الحاجز بين العالمين (الإنساني والماورائي)، دفاعاً عن قيمة متوارثة لا يمكن خذلانها.

ويكتسب هذا التوظيف بعداً رمزياً عميقاً، إذ لا يُفهم الثأر من الجن كحدث خيالي فقط، بل كإشارة إلى غُموق الإيمان الجاهلي بقداسة الدم، ووجوب ردّه بأي ثمن، مما يجعل من الثأر أداة لقياس الولاء والانتماء والشجاعة، حتى في أكثر تجلياته الميتافيزيقية.

في جانب آخر، تتكرر تقنيات الحكاية الشعبية في رحلة أزر البطولية نحو الفداء، خصوصاً حين تقرر قمر أن تدخل نزال صناديد العرب وهي مثلثة، وتفوز به، ثم تعلن أن من يستحق اللقب هو أزر، هذا المشهد يعيد توظيف ما يُعرف بـ"التنكر البطولي"، وهو عنصر شائع في الحكايات الشعبية، حيث يتخفى المحقّ ليُعيد للحق مكانته.

ولعل أبلغ صورة لهذا التوظيف هو حضور النبوءة الكهنوتية في بداية الرواية، إذ يخبر الكاهن "شق" أن من يحمي قمر سيكون أزر، ويتحقق هذا في سلسلة من الأحداث التي يبدو أنها مكتوبة مسبقاً.

هذه التقنية تكرر مفهوم "القدر المكتوب" الذي يشكل جوهر العديد من القصص الدينية والأسطورية، وقد أشار جوزيف كامبل إلى ذلك في كتابه البطل بألف وجه، حيث حدّد مراحل الرحلة البطولية في: " النداء، العبور، الاختبار، والعودة " <sup>1</sup>.

كذلك، يحضر الموروث الديني التوراتي والقرآني بشكل ضمني، حين تُقدّم الذئبة "حواء" بوصفها سلبية ذئب برأ نفسه من دم يوسف، وكأن الرواية تعيد فتح الحكاية القديمة بمنظور جديد، يتجاوز الإدانة إلى إمكانية التطهير الرمزي، بل وتحويل الذئب إلى حاضن للبطولة.

ثم يُعاد إنتاج المرويات الجاهلية عن الكعبة والحج من منظور تخيلي، وكأن الرواية تريد أن تعيد تخيل الفضاء المقدس بما يتناسب مع روح الحكاية. كما أن كتابة اسم أزر على رقعة الصنديد وتثبيتها على الكعبة يُعيد الربط بين البطولة والقداسة.

حتى العلاقات الاجتماعية داخل الرواية تُبنى على أنقاض الروابط الجاهلية. فالحب بين أزر وقمر لا يكتمل لأنه خالٍ من الشرعية القبلية، ويُستبدل بالتحالف السياسي مع ملك اليمن، في إشارة إلى كيف أن المصالح السياسية والاجتماعية أقوى من العواطف، وهي فكرة مركزية في الأسطورة الكلاسيكية، حيث دائماً ما تُضخّ الشخصيات بمشاعرهما من أجل القيم الكبرى.

في المحصلة، لا تستدعي رواية أزر ابن ذئبة الوادي الموروث الشعبي والأسطوري الجاهلي من باب التزيين أو التغريب، بل تُعيد توظيفه داخل بنية سردية متكاملة، تصنع من الرموز أداة لتشكيل المصائر، ومن الحكاية الشعبية أرضية لطرح الأسئلة حول النسب، والقدرة، والحب، والانتماء.

## الخاتمة

خلص هذا البحث إلى أن رواية أزر ابن ذئبة الوادي تُقدّم نموذجاً سردياً معاصراً يعيد توظيف المعتقد الجاهلي والموروث الشعبي ضمن بنية تخيلية متماسكة. وقد أظهر التحليل النتائج التالية:

- توظيف الموروث الجاهلي لا يتم بوصفه خلفية ثقافية جامدة، بل كبنية رمزية تفاعلية تسهم في تشكيل الشخصيات ومسار الحدث.
- دمج الرموز الأسطورية مثل: الذئبة حواء، الغراب، الكاهن شق، العامرية، يُنتج دلالات مركبة تمزج بين الأسطورة والتأويل السردى الحديث.

<sup>1</sup> البطل بألف وجه، جوزيف كامبل، مرجع سابق، ص 45

- النشأة البطولية للبطل "آزر" بُنيت على أساس أسطورة الحيوان الراعي، مما يعكس تحوّل الولادة من النسب البيولوجي إلى الرمزية القدرية.
- مفهوم النسب الجاهلي أعيدت مساءلته من خلال تقديم البطل اللقيط بوصفه الأحق بالمجد، لا بأصله بل بفعل يده.
- توظيف النبوءة والحلم أدرج ضمن بنية سردية تُعيد إنتاج المصير بوصفه اختيارًا لا قدرًا مفروضًا.
- الموروث الشعبي استُدعي في بنية الحرب والبطولة والفداء، لا كوثيقة تاريخية، بل كطاقة تخيلية لإعادة بناء الهوية.
- أعادت الرواية بناء الموروث ضمن فضاء سردي حديث لا يُقصي الرموز، بل يُفعلها في تشكيل الشخصيات والمصائر والصراع، دون السقوط في النقل الساذج أو التغريب الزائف.
- نجحت الرواية في تقديم رؤية ثقافية معاصرة للجاهلية لا بوصفها "فترة ظلام"، بل بوصفها "حقلاً أسطوريًا" زاخرًا بالدلالات الرمزية والجدل القيمي.
- وقد دلّت النتائج على نجاح الرواية في تقديم تفاعل ديناميكي بين التراث والتخيل دون الوقوع في التبسيط أو النقل المباشر.



**التوصيات:**

توصي الدراسة بتوسيع مجال البحث في توظيف الموروث الجاهلي والأسطوري ضمن الرواية العربية، ودراسة نماذج سردية موازية تعتمد التخيل الرمزي بوصفه مدخلاً لرؤية العالم وتحليل بنية المجتمع.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

آزر بن ذئبة الوادي – أحمد آل حمدان – مطبعة الكتاب العربي - 1446هـ - ط1

ثانياً: المراجع:

- الأساطير العربية قبل الإسلام، محمد عبد المعيد خان ، - القاهرة- 1937
- الأسطورة عند العرب في الجاهلية، حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1998
- الأسطورة والموروث الشعبي في الرواية العربية المعاصرة، علاء عطية، مجلة الأدب والنقد، العدد 412، القاهرة، 2021
- البطل بألف وجه، جوزيف كامبل، ترجمة : حسن صقر، ط1-دار الكلمة للنشر والتوزيع، دمشق، 2003
- التراث الشعبي، عبد الحميد يونس، دار المعارف ( كتابك 91)، 1979
- السردية العربية بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، عبد الله إبراهيم، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1992
- العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1995
- العصر الجاهلي، شوقي ضيف- ط22 – دار المعارف – مصر – 2000
- الله والكون والإنسان: نظرات في تاريخ الأفكار الدينية ، فراس السواح، مؤسسة هنداوي ، 2022
- الموروث الشعبي، فاروق خورشيد، دار الشروق، مصر، ط1، 1992
- النقد الاجتماعي، ببير زيماء، ترجمة عائدة لطفي، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1991
- النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، عبد الله الغدامي، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، 2005
- تاريخ الأدب الجاهلي، على الجندي- الجزء الأول- مقدمة لدراسة الأدب الجاهلي- ط2. ١٩٦٦. مكتبة الجامعة العربية. بيروت
- ريموس ( أسطورة رومانية)، ت.ب. وايزمان، ت.توفيق علي منصور ، المجلس الأعلى للثقافة(546)، مصر
- مدخل لدراسة الفلكلور والأساطير العربية، شوقي عبد الحميد، الناشر مؤسسة هنداوي، 2017
- مظاهر الأسطورة، إلياد مرسيا، ترجمة :نهاد خياطة، مؤسسة هنداوي، 2017





- مغامرة العقل الأولى، فراس السواح، مؤسسة هنداوي، 2022، ص 18
- موسوعة الأديان السماوية والوضعية، نعمة حسن - دار الفكر اللبناني- بيروت -1994م-25/1
- نبيلة إبراهيم، البطولة في القصص الشعبي، دار المعارف، القاهرة، 1977